مقدمة

الفهم الخاطئ لإيران

وجه الرئيس جورج دبليو. بوش اهتمامه نحو إيران، في خطابه عن حالة الاتحاد وهو الخطاب المعروف في ذكرى اتحاد الولايات المتحدة الأمريكية، في الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني/ يناير 2006، واصفا إياها «بالأمة المرتهنة في الوقت الراهن من قبل نخبة صغيرة حاكمة من رجال الدين، تعزل وتقمع شعبها». مضى الرئيس في التأكيد على أن «الحكومة الإيرانية تتحدى العالم بطموحاتها النووية، ويتعين على دول العالم عدم السماح للنظام الإيراني بالحصول على أسلحة نووية»(1). جاء رد طهران، كما هو متوقع، سريعًا وحازمًا، حيث هاجم الرئيس محمود أحمدي نجاد الرئيس بوش، واصفًا إياه «بمن لطخت ذراعاه حتى المرفقين بدماء الشعوب الأخرى»، متعهدًا في الوقت ذاته «بسوقه في المستقبل القريب إلى محاكم تقيمها الشعوب، بمشيئة الله»(2). ميز الخطاب اللادبلوماسي، المماثل لما سبق، العلاقات الأمريكية ــ الإيرانية ربع قرن من الزمن، ولكن هذا التبادل للعبارات القاسية، على وجه الخصوص، يلمح إلى السبب الحقيقي للتباعد بين الطرفين ـ سوء فهم عميق، دائم، ومتبادل لطبيعة العدو.

مثّل الفهم الخاطئ لإيران، في الواقع، قاسمًا مشتركًا بين الإدارات الأمريكية على اختلاف توجهاتها السياسية. أساءت الولايات المتحدة بشكل متواصل، منذ قيام الثورة التي أسست الجمهورية الإسلامية في

العام 1979، حتى المواجهة الحالية القائمة بشأن الطموحات النووية الإيرانية في تقديرها للحكم الديني الأقلّي في إيران.

تختلف إيران بصورة مؤثرة عن جيرانها العرب، ناهيك عن النظام الكوري الشمالي المنغلق على ذاته، على النقيض من تأكيدات الرئيس بوش، وتصنيفه إياها في السابق ضمن «محور الشر»: دولة مارقة إلى جانب نظامي صدام حسين، وكيم جونغ إيل الشموليين في العراق وكوريا الشمالية. تؤدي الانتخابات في إيران دورًا مهمًا، علاوة على مؤسساتها وأحزابها السياسية، وتؤثر بصورة فاعلة في طريقة عمل الحكومة. تثار النقاشات ضمن البرلمان والمكتب الرئاسي، والمنتديات والشارع، ووسائل الإعلام وأروقة الجامعات. تسهم بيروقراطية إيران المعقدة ـــ بعيدًا عن كونها دولة شمولية متحجرة ـ ناهيك عن ثقافتها السياسية المفعمة بالتنافس، وشخصياتها المتفردة، التي تسهم على الدوام في التأثير والسلطة داخل البلاد. يقرر التفاعل الحاصل بين تلك المؤسسات، وأولئك اللاعبين، في نهاية المطاف، طبيعة السياسات الإيرانية المختلفة.

تمر الجمهورية الإسلامية، بعد أكثر من ربع قرن على قيامها بمفترق طرق، على ضوء تولي جيل جديد من المحافظين المتشددين السلطة، مع الإصرار على العودة إلى «جذور الثورة». لا ينبع النزاع الحاصل في إيران، بكل الأحوال، من الانبعاث المباشر للسياسات الرجعية، بل التناقض المتأصل في بنية حكمها. انقسمت الجمهورية الإسلامية، منذ نشأتها، بين مراكز قوى متصارعة، ومفاهيم مختلفة بشدة حول السلطة السياسية. نص الدستور الأساسي على أن غاية الدولة الأولى تتمثل في «إيجاد الظروف التي يمكن من خلالها نشر قيم الإسلام الكونية النبيلة»[3]. أحدثت، بغية

إنجاز هذه المهمة، مراكز ومؤسسات غير منتخبة، كالمرشد الأعلى، ومجلس الأوصياء، وعهد إليها بسلطات مطلقة فيما يتعلق بالشؤون القومية. اختلفت بنية الجمهورية الإسلامية، مع ذلك، بصورة مؤثرة عن الدولة الشمولية التقليدية، منذ سمحت للشعب بانتخاب الرئيس، والبرلمان، والمجالس البلدية. تعكس تلك الازدواجية المحيرة ميراث ثورة شهدت تحالفًا متباينًا من العلمانيين، والليبراليين، والأصوليين، وتعاونًا لا يخلو من صعوبة فيما بينهم على الإطاحة بالملكية. ساد الاختلاف والتوتر، منذ تلك المدة، بين أولئك الساعين إلى إقامة نظام إلهي، ومن يطالبون بمزيد من الحكم التمثيلي. لم ينجح الملالي بأي من الأشكال، بالرغم من دعاويهم الشمولية، في تكريس هيمنتهم المطلقة على الشؤون العامة. بقيت الإرادة الشعبية طيلة فترة حكمهم ـ بغض النظر عن الضوابط الثيولوجية ـ محددًا مهمًا لشرعية الدولة الإيرانية، وبقائها.

تمثل إيران اليوم أمة تلتمس هويتها، دولة تتأرجح بين وعود الحداثة الديموقراطية والتقاليد الرجعية. يتمثل أحد إنجازات حركة محمد خاتمي الإصلاحية ـ على ضوء ما حققته من انتصارات انتخابية في العامين 1997 و2001، بالرغم من انتكاساتها الملموسة كافة ـ في الحيلولة دون جعل إيران دولة شمولية صارمة. أسهمت الدعوة إلى التمثيل وحكم القانون، والمحاسبة والمساواة، في تحويل المواطن الإيراني العادي من مراقب لا منفعل لسياسات رجال الدين، إلى عنصر فاعل للتغيير. تنبع مرونة القوى التقدمية من تنوعها. التقى رجال دين إصلاحيون، وشباب متنورون، وأفراد طبقة وسطى منهكة، ونساء ساعيات إلى التحرر، ومفكرون تواقون إلى حرية الفكر جميعًا على المطالبة بحكومة تتفاعل مع شعبها. ستخضع

إيران للتغيير، بالرغم من التمكين الظاهري لسلطة المحافظين، ووصول رئيس متشدد (رجعي) إلى سدة الحكم في انتخابات العام 2005؛ لذا لن يكون من الممكن، على المدى الطويل، أن يتم إرضاء الشعب الإيراني المتحضر، بما يحويه من عناصر شابة، بعدد من التنازلات الشكلية، أو إخماد صوته بالويل والثبور.

لا بد أن يأتي التحول الديموقراطي في إيران، مع ذلك، ضمن سياقه الطبيعي. لا تسهم مهاجمة الرئيس الأمريكي إيران بوصفها جزءًا من «محور الشر»، أو الإساءة إلى العملية السياسية فيها عبر التشكيك في نزاهة انتخاباتها، قبل أن تجري؛ حتى لا تسهم إلا في منح المتشددين ما يحظون به من قدر ديموقراطي إيران، بوصفهم أدوات للمؤامرات الغربية دون علم منهم. لا يمثل ما يحدث في إيران، على النقيض من تصورات واشنطن، نزاعًا بسيطًا بين الملالي والشعب. يتسم الانقسام والتنافس السياسي والأيديولوجي في إيران بقدر أكبر من التعقيد والدقة. لا يمثل رجال الدين المعارضون في الحوزات، والمسؤولون الشباب الذين يخوضون صراعًا للقوى داخل الحكومة، والمنظمات الطلابية التي تواجه السلطات، والنسوة اللواتي يتحدين القيود الدينية المفروضة باستمرار، لا يمثل جميعهم سوى جزء من الحركة ذاتها الساعية إلى صبغ البلاد بالصبغة الليبرالية. تتلاشى الفروق الكبيرة بين الشعب والنظام سريعًا، حين يدرك المرء ما أصبح نظام إيران الإسلامي عليه من لا مركزية ومرونة خلال العقود الثلاثة الماضية. ستتصف واشنطن بالحكمة، قبل الخوض في النزاع السياسي الإيراني المتداخل، إن توصلت إلى فهم أفضل لتعقيدات إيران وتناقضاتها.

obeikandi.com

تبالـغ أمريـكا وتخطئ، على حد سـواء، حـين تنتقد إيران باسـتمرار بوصـفها دولـة متشـددة تسـعى إلى إيـذاء جيرانهـا، وفرض نموذجها الإسلامي على الشرق الأوسط الكاره. يتمثل السبيل الأنسب لفهم سياسة إيران الخارجية في تخيل توليفة من ثلاثة عناصـر متداخلة ـ أيديولوجية إسـلامية، ومصـالح وطنية، وسياسـات منقسـمة ـ تتصـارع فيما بينها باستمرار. وُسِمت سياسة إيران على الدوام، من ثم بدرجة من التناقض، والتأرجح الشـديد بين البراغماتية والعقديَّة. تمثل تلك المفارقة الرئيسـة التي حيرت كلاًّ من منتقدي النظام الإيراني وأنصاره.

انتصـرت الأيديولوجية على الاعتدال في عدد مـن الأحيان، منذ قيام الجمهورية الإسلامية، ناهيك عن التضحية بالمصالح الوطنية على مذبح التشـدد الإسـلامي. بلغت الفاعليـة الثوريـة أوجها في ثمانينيـات القرن المنصـرم، بينما حدد النزاع مع العـراق وأمريكا مرتكزات علاقات إيران الدولية. كان العقد الأول من الثورة مثيرًا بالفعل، بينما لم يَرَ مؤسس أولى الثيوقراطيات المعاصـرة، آية الله الخميني في نفسه رئيس دولة، بل قائدًا لمجتمع المؤمنين بأكمله. مثلت تلك «ثورة بلا حدود» تسعى إلى تحرير الأمة الإسـلامية من الإمبريالية الأمريكية والصـهيونية الإسـرائيلية. تحركت إيران الخميني في الشـرق الأوسـط بعنف، ملتمسـة الأعـداء لمحاربتهم، سـاعية إلى تقويض السـلطات القائمة باسم الأصـالة الدينية. لم تشتمل تلك المرحلة من الثورة على التسويات والتنازلات التي تنزع الدول في العادة إلى تقديمها.

أدرك خلفـاء الخميني الأقل تشـددًا، بصـورة تدريجية، أن سياسـته العدائية لم تعزل إيران في المنطقة فحسب، بل مهدت الطريق لوجود أمريكي

أكثر كثافة في جوارهم. حدث تحول جوهري في توجهات إيران الدولية، في تسعينيات القرن المنصرم، ليبرز حسابات المصالح الوطنية كعامل محدد لمقاربتها تجاه العالم. سعت طهران إلى تشكيل «تحالف الراغبين» الخاص بها ـ عبر تطوير علاقات تفضيلية مع قوى عالمية رئيسة، كالصين وروسيا ـ ناهيك عن إعاقة مساعي الولايات المتحدة لضم حلفاء جدد يدعمون سياستها الضاغطة على إيران. أقام الإصلاحيون والمحافظون تحالفًا فضفاضًا، برعاية المرشد الأعلى آية اللّه علي خامنئي، استنادًا إلى الفكرة المتمثلة في عجز إيران عن الاستمرار في عزلتها عن النظام الدولي.

يواجه الاعتدال الواقعي ذاك تحديه الأكبر اليوم، بينما يبدو أتباع الخميني مصممين على تكريس القناعات الثورية أساسًا لحكمهم. أخذت زمام الأمور تؤول إلى جيل أكثر تشددًا وعقديًّا، بينما تتقادم الثورة، ويغيب من عاصروا قيام الجمهورية الإسلامية من الساسة عن المشهد. كثيرًا ما ينتقد أحمدي نجاد وأعضاء حكومته تقاعس شيوخهم عن فرض الأحكام الدينية ـ ردًّا على مشكلات إيران المتعددة ـ ناهيك عن تفشي الفساد الذي عم أرجاء الدولة. تخلى رئيس إيران المتشدد، على صعيد السياسة الخارجية، عن خطاب خاتمي المتعلق «بحوار الحضارات»، علاوة على معارضته الشديدة لإعادة مد الجسور مع الولايات المتحدة، حتى وصل الأمر إلى عدم مبالاته بالاتحاد الأوروبي.

يصعب مع ذلك، بالرغم من بروز «اليمين الجديد»، رؤية الكيفية التي يمكن بها لأحمدي نجاد وحلفائه أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الأيام الأولى للثورة. تضع التحولات التي مرت بها إيران خلال العقود الماضية، وتواصل

الانقسام الذي يسود سياستها، واستمرار سلطة كبار رجال الثورة، كعلي خامنئي، وأكبر هاشمي رفسنجاني، الكثير من العراقيل أمام توجهات أحمدي نجاد، وطروحاته. ربما يشارك رئيس إيران (الرجعي) الخميني في دعاويه الأيديولوجية المتشددة، ولكنه لا يملك السلطة أو المكانة التي تخول له فرض مثل تلك الرؤى على مراكز القوى المتصارعة في بلده. يرجح، في نهاية المطاف أن تستمر التوليفة المحيرة ذاتها، من الواقعية والأيديولوجية، البراغماتية والتشدد، في توجيه الجمهورية الإسلامية، بالرغم من انخراط صوت جديد متزمت في مداولات إيران المتعلقة بسياستها الخارجية.

تشتمل سياسة إيران الخارجية، كما الداخلية، على العديد من المفارقات والتناقضات التي تسمها. لم تخضع إيران، بشكل جوهري، للتجربة النموذجية المتعلقة بالدولة الثورية - أو التخلي عن إرثها الراديكالي مقابل قدر أكبر من المغريات الدنيوية. لا يزال النزاع المتواصل بين الطروحات الأيديولوجية والاعتبارات العملية يثقل كاهل الجمهورية الإسلامية. لم تعد إيران دولة راديكالية تسعى إلى قلب النظام الإقليمي باسم الشرعية الإسلامية، ولكن نزعة طهران إلى (الإرهاب)، ومقاربتها للصراع العربي - الإسرائيلي، وعلاقتها مع أمريكا لا تزال تستمد من حسابات قاصرة عن بلوغ أهدافها ذاتيًا، تستند - على قدم المساواة - إلى اعتبارات سياسية داخلية وضرورات أيديولوجية. تمثل إيران اليوم، ومن ثم مشكلة خاصة للولايات المتحدة، لا يمكن معالجتها عبر الدعوات القاصرة إلى تغيير النظام، أو إطلاق النعوت ببساطة. ستتصف الولايات المتحدة بالحكمة، عند التعامل مع هذه المشكلة المعقدة، إن عملت على توظيف مجموعة متكاملة من الأدوات الدبلوماسية، والاقتصادية، والسياسية.

لا بد أن نعود، في هذه المرحلة، إلى سؤالنا الأصلي: لِمَ يفهم الكثيرون إيران بصورة خاطئة للغاية؟ يعد إدراك ذلك الفشل المتواصل، بطريقة أو بأخرى، من السهولة بمكان، بالنظر إلى مخالفة إيران توقعاتنا في الكثير من الأحيان. تناقض فكرة وصول ثيوقراطية إلى الحكم، في أواخر القرن العشرين، الطرح التقليدي حول التقدم الذي يفترض أن المجتمعات المعاصرة تنبذ تقاليدها بالضرورة. يبرز، مع ذلك، في يومنا هذا، إجماع آخر في الدوائر السياسية الأمريكية، يدور حول التأكيد على أن النظام الثوري الهش يمكن أن ينهار بسهولة إن مارست أمريكا قدرًا أكبر من الضغوط، لا أكثر، وصعدت من سياستها العقابية. ستتحدى الجمهورية الإسلامية بثباتها، على الأرجح، بدهيات واشنطن الأخيرة مجددًا. يفشل المسؤولون الأمريكيون ثانية في استشراف سقوط الثورة الإيرانية، وهم الذين فشلوا في التنبؤ بقيامها في المقام الأول.

قد لا يعود بمقدور أمريكا التنعم بسوء فهمها للجمهورية الإسلامية، ودوافعها، وطموحاتها، بينما يتجاوز برنامج إيران النووي عتبات متتالية، وتبرز طهران لاعبًا مؤثرًا في العراق. تثير إيران الكثير من المخاوف الأمريكية، بدءًا من انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب، وصولاً إلى حقوق الإنسان والدمقرطة. لا يأتي ذلك إلا في أكثر أوقات المواجهة الأمريكية ـ الإيرانية حدة منذ أزمة الرهائن. يصف القادة الأمريكيون إيران بالتهديد الخطير من آن لآخر، بينما يبحثون، في معظم الأوقات، الخيار النهائي المتمثل في ضرورة استخدام القوة العسكرية لتدمير بنيتها النووية التحتية. سيكون من الأهمية بمكان، إن أردنا التأمل في الأحجية الإيرانية بصورة ملائمة، أن نسلط الضوء على نظام رجال الدين، ونتوصل

إلى فهم أفضــل لفئاته، ومجادلاته، والصراع الدائر على السلطة فيه. لن يكــون بمقدورنــا ـ ما لم نســبر أغوار إيــران الخفية ـ أن نتنــاول التحدي الحقيقي الذي تفرضه الجمهورية الإسلامية.

obeikandl.com